اختطاف الاطفال

حرب علنية على الطفولة العراقية

طاهرة داخل

يرتجف قلب الام ، حين تنهض فزعة ، وقلقة ويقفز قبل عيناها جسدها نحو باب الدار لان ولدها ابتعد لخطوات.

وتتسمر عيناها ذاهلتين ، لا تصدق ان ولدها الذي ذهب الى المدرسة مع اخوته او اصحابه ذهب ولن يعود اليها.

تنتظر مفجوعة قرب الهاتف ، يجفل قلبها قبل ان يرن الهاتف !! يجف فمها.. وترتعش يدها ويزاحمها نبض القلب حين تجيب ، .. الو .. منو .. الو ، منو ، لك يمة ، بعد روحي روحك ، علاو......" ، وينغلق الهاتف ، ولم تصدق ان الخط قد اغلقه الطرف الاخر. من هذه اللحظة تبدأ رحلة الصفقة!

لم يتغير المكان.. الا ان الزمان تغيّر

مر على العراق طغاة ، واحداث مهولة، وانواع من تسميات الغزاة. وصار الرجال الذين يترعون بالشر يفكرون باسلوب الجريمة المنظمة، بعد ان كان المجرمون في العراق لا يجرؤون على اختطاف وقتل طفل... صاروا بعد ان ملأ الطاغية (صدام) قلوبهم بالوساخة..

يفعلون .. اكثر من ذلك..

(خطف الاطفال) !! احدى الجرائم التي اخذت الكثير من اهتمام الاشرار، وتركزت في مناطق واحياء معينة، اذ نجد ان معظم المخطوفين هم من المناطق التي يعيش فيها تجار وصاغة وذوو الاعمال الحرة من الميسورين.

وفي استطلاع لي وصلت الى (احدى عشرة) حالة خطف كان معظم المخطوفين من مدينة (....) واماكن اخرى.

ووجدت ان الاعمار التي يفضلها الخاطفون هي من عمر (٦-١٥) سنة. الا ان النسبة الاكبر كانوا من عمر (١٤-١٥) سنة لانهم على ما يبدو يتفهمون الموقف ويسهل السيطرة عليهم وتوجيههم عند الاتصال بعوائلهم كعامل ضغط على الاسرة.

وفعلاً كان (٦) اطفال من (١١) طفلاً هم في عمر (١٤) سنة.

وفي جميع الحالات التي اطلعنا عليها ان دواعي الخطف فيها لغرض الابتزاز المادي.

(اختطاف وعنف وانتهاكات)

الطفل (.....) من سكنة (.....) ويبلغ من العمر (١٠) سنوات، كان يعيش مثل باقي الاطفال، يلعب ويضحك، ويعشق الاشياء الحلوة.. الا ان حدثاً وقع له غير مجرى حياته كلها واقفل الباب على طفولته وصار سجين ذلك الحادث ربما حتى مرحلة طويلة من عمره، حسب اطباء علم النفس.

اذ عثر عليه موثوقاً ومكمماً في صندوق السيارة التي ارتطمت بالمصادفة بحافلة ركاب طويلة مركونة امام احد الدور. مما تسبب بجرح الاشخاص الموجودين في السيارة وفقدانهم لوعيهم فقد كانوا سكارى والوقت متأخر. وقد اكتشفت العائلة التي وقع الحادث امام دارها امر الصبي في صباح اليوم التالي بعد سماعهم لانين يصدر من السيارة واكتشفوا امر الصبي الذي كان مكان اسرته قريباً من مكان الحادث، اذ يسكن في الناحية الاخرى من الشارع.

هذا الطفل لا ينام ولا يهدأ الا باقراص مهدئة، ويستيقظ على كوابيس مرعبة، وهو يصرخ، ويستر نفسه من حالة اغتصاب يفرضها عليه خياله وعقله الباطن، وذاكرته التي لوثها المختطفون الى الابد.

(الخطف وخبرة صادمة)

توجهت بالسؤال الى الدكتور (علي مزيد) اختصاصي بالطب النفسي وله اهتمامات بدراسة الظواهر الاجتماعية واثرها على المجتمع وبوجه خاص الظواهر التي اخذت تبرز بعد الحرب الاخيرة وملابساتها، عن ماهية اعراض وردود افعال التعرض للصدمة وتاثيرها على الطفل في الظروف الراهنة.فقال:

من المعروف ان الخبرات الصادمة نفسياً هي احداث مفاجئة وغير متوقعة وخارج حدود الخبرة الانسانية العادية تهدد او تدمر صحة الفرد او حياته، يستجيب لها الفرد بالخوف الشديد واحياناً بالعجز والرعب. لها اعراض تشخيصية واعراض اخرى مصاحبة. الاعراض التشخيصية ثلاثة اولها استرجاعات متكررة للحدث. فلاش باك، على شكل ذكريات، او احلام او كوابيس وثانيها تجنب المثيرات والاماكن المرتبطة بالحدث وثالثها الاستثارة الدائمة على شكل صعوبة بالنوم ونوبات من العنف والهيجان.

اما الاعراض المصاحبة فان الدراسات العلمية تؤكد ان ٣٠-٥٠٪ من الاطفال المتعرضين للخبرات الصادمة يعانون من اعراض نفسية بدرجة او اخرى تاخذ شكل اضطرابات او شكاوى جسيمة متعددة نفسية المنشأ مع اكتئاب ، قلق، اكتئاب، مخاوف مرضية، مشكلات في النوم، مشاكل في المدرسة، مشكلات في التركيز ، فقدان مهارات تم اكتسابها حديثاً ، شعور بالذنب.

❖ما ردود الافعال على المدى البعيد؟

. على المدى البعيد، تظهر ردود افعال الاطفال لخبرات الصدمة النفسية على شكل صحة جسدية معتلة، بما في ذلك التعرض للالتهابات كوابيس ومخاوف عدم اتزان عاطفي وانفعالي وانحراف واضح عن مسار النمو الطبيعي عقلياً واجتماعياً، فشل دراسي، وانحطاط في الاداء العام، وضعف في القدرة على اتخاذ القرارات، نظرة سوداوية، وفلسفة متشائمة، في الحياة، مسالك لا اجتماعية مع وسواس مرضي.

معظم المختطفين تركوا المدارس:

مما يقلق ويثير الألم ان الاطفال الذين تعرضوا للخطف. ظهرت عليهم علامات الامعان في الخوف وموقفهم النفسي مستقبلاً معرض لاصناف الصدمات النفسية والجسمية.

ان تسعة من الاطفال الذين اختطفوا امتنعوا عن الذهاب الى المدارس او الاختلاط باقرانهم فضلا عن الكوابيس والانطواء داخل الاسرة.

حالات من العنف الاخرى، اذ تعرض الطفل (.....) البالغ من العمر (١٤) سنة للكوي بالسيكارة، والتعذيب والتجويع ليخبرهم عن اماكن احتفاظ عائلته باموالهم ومصوغاتهم وكانوا يمنعونه من الصلاة.

عند عودته الى اسرته فضل ان لا يعود الى المدرسة ولم تبارحه الكوابيس مطلقاً.

وان ذلك انسحب على جميع حالات الخطف الاخرى التسعة.

عيادات الاطباء شواهد واعترافات!

للمزيد من التعمق في موضوع خطف الاطفال وجدت ان ازور بعض عيادات الاطباء النفسيين والعصبيين، لمعرفة عدد الاطفال الذين يزورونهم وهم يعانون من اعراض وتاثيرات عملية الخطف التي تعرضوا لها.

الدكتور عبود رشيد اختصاصي الجملة العصبية والباطنية قال لنا:

بسبب نقص الوعي لدى المجتمع فان بعض الاهالي، يلجأون لطبيب الجملة العصبية والباطنية اعتقاداً منهم انه يؤدي دور الاختصاصي النفساني.

وبصراحة ان العوائل التي تزورنا لا تعلن ان الطفل قد تعرض لحادث الخطف وانما تعلن عن اثار يمكن للطبيب المختص ان يكتشفها ببساطة ويعلم انه قد تعرض لتجربة عنيفة وخبرة صادمة. واولها الاكتئاب والصداع المستمر والاضطراب الانفعالي عندها احيله الى طبيب اختصاص بالطب النفسي.

الشيزوفرينيا

اما الطبيب (عبد الكريم العبودي) وهو اختصاص بالطب النفسي ورئيس الجمعية العراقية للصحة النفسية للاطفال يجيب قائلا:

جاء الى عيادتي اطفال كثيرون تعرضوا لحالات الخطف. واضطراباتهم كانت متنوعة وشديدة ويمكن ان نقول ان جميع الاعراض عندهم. خلل ، جيد وعصبي.

واشار الى انه وبعد سفره الى انكلترا وتدرب به على تخصص الطب النفسي للاطفال سيعمل على الاهتمام بهذا الجانب ويدرب الاطباء في طب الاطفال على التخصص.

ما حجم المشكلة؟

الدكتور (علي مزيد) اوضح لنا حجم المشكلة وهل المراجعون للعيادات يمكن ان يعطوا مؤشراً عن حجم الظاهرة في مجتمعنا؟

ان المراجعين للعيادات لا يمكن ان يعطونا مؤشراً واضحاً عن حجم المشكلة لان الطفل لا يستطيع ان يعبر عن مكنونات نفسه ولا يستطيع ان يصف اله النفسي ولذا فمعاناته تاخذ اشكالاً اخرى في التعبير.

وفي ضوئها ياتي ذووه لطلب الخدمة النفسية وهذا يتطلب وعياً قد يكون غير متوفر للجميع.

كما ان ظروف التنقل في الوقت الحاضر نتيجة الظرف الامني لا تسمح الا بمراجعة من هم في مناطق قريبة جدا، ولذا استطيع القول ان مراجعي أي عيادة خاصة لا يشكلون عينة صادقة للدراسة، ولكن يمكن اعتبارهم مؤشراً على وجود الظاهرة وبالنسبة لي يراجعني عدد من (٥-٦) اطفال دورياً ممن يعانون من اضطرابات سلوكية ذات علاقة بخبرات ما بعد الصدمة.

ويؤيده الدكتور عبد الكريم العيدي مضيفا:

. الجانب السريري قليل ولكن الجانب الحقيقي الموجود في المجتمع هو اكبر. فكل ما نسمع ان هناك طفلاً يخطف ولكن ليس جميع من يخطفون يحضرونهم الى عيادات الاطباء النفسانيين.

خطف الاطفال ورعب الكبار!

فما يستغرب له ان تكون ردود افعال الكبار تجاه خطف الاطفال ممن يحيطون بحالة الخطف من الاسرة او الاقرباء تكون ردود افعال كبيرة من الخوف والقلق حتى بعد استعادة اطفالهم . وربما الخوف من تكرار عملية الاختطاف لطفل اخر من الاسرة نتيجة التهديد المصاحب عند اطلاق الطفل المختطف من قبل العصابة.

اذ ظهرت ردود الافعال في مواجهة العنف المغيب والذي قد يبرز فجأة في حياتهم كما برز في المرة الاولى. مثل الانزواء والانسحاب ، والتكتم، هذا فضلا عن الانهيار العقلي الذي قد يصاب به احد اطراف الاسرة او الهروب من البلد والسفر خارجه.

فمثلا في حالة الطفل (.....) وعمره (١٢) سنة من حي (.....) والذي خطف امام الناس وهو يسير مع اخيه الذي لم يستطع انقاذه مع اشخاص اخرين حاولوا مواجهة العصابة بسبب خطفه توفي والده وعمه ومن ردود افعال الكبار وعدم تحملهم للصدمة جعلهم ذلك ينهارون وخاصة حين يكون خوفهم واقعياً وهم من اهل ايام زمان كما يقول المثل ولم يعتادوا مصائب مثل هذا النوع.

فبعد ان خطف الطفل (.....) البالغ من العمر (١١) سنة من سكنة (.....) سافر والده ليلتقي بعمه في الامارات والاخير كان يعيش في اوربا واراد ان يلتقي بوالد الطفل المخطوف ويعطيه مبلغ الفدية الذي طالبه به المختطفون.

الا ان الاثنين (العم والوالد) لم يحتملا مشاق طول الفراق وشدة الشوق وصدمة الالم والاختطاف فعادا بنعشين الى ارض الوطن

عاد الطفل ولا ندري هل اخذ المختطفون المقسوم ام لا. لكن الاب والعم فارقا الحياة كمداً

حلول الكبار

هل نعطي للكبار حق احتجاز الاطفال داخل البيوت ؟

اجابنا الدكتور (علي مزيد) قائلا:

اتضح لنا في هذه الظروف بان الطفل لا يتفاعل بالطريقة نفسها التي يتفاعل بها الراشد مع الرصاصة او القذيفة او الانفجار او أي صادمة نفسيا فالطفل يؤمن حمايته تجاه العالم الخارجي من خلال بناء شبكة.حماية مشيدة في اطار البنية العائلية وبالتالي لا قدرة للعنف والظواهر الصادمة المرافقة له على المساس بالطفل الا من خلال البنية العائلية.

حين تضطرب فقد يتخذ شكل الخوف ارهابياً تجاه الاب او قد يترجم نفسه على شكل تخوف من انفصال الام. ولكن هناك الاهل وخصوصاً الام من الرضوخ عند ذاك تبدأ المظاهر السلبية بالظهور كالتأخر الدراسي، الشغب، الاضطرابات، العدوانية النوم القلق...الخ، وهذا ناتج من تحول الاهل وخصوصا الام من كونهم وسيطاً ضرورياً للتقرب للعالم الخارجي والاستئناس به والتفاعل معه الى عائق يحث الطفل على الانغلاق والعودة الى مراحل اكثر طفولية.

سايكولوجية المجرمين

كانت تقلقني قضية خطف الاطفال وكنت اتساءل من هم بحق السماء الذين يتمكنون من ايذاء الاطفال ومحاصرتهم بوضع مؤلم ويواجهونهم بالعنف والوساخة؟!

وهل ان اجرامهم تحكمه الظروف الامنية في العراق واضطرابها وتحكمه طبيعة نفوسهم المريضة التي اختارت هذا النوع من الجرائم لكسب المال الحرام؟!

توجهت بالسؤال للدكتور (عبد الكريم العبودي) فاجاب:

. ان المجرمين على اصناف ولكن اخطرهم من تكون الجريمة لديهم ليست مكتسبة بسبب الظروف الحياتية للمجرم وانما هي متأصلة وراثياً فيه حتى من دون تأثير من عوامل خارجية.

وتلك هي الخطورة اذ يمكن لاثنين من هؤلاء ، ان يجعلوا حياً بكامله مضطرباً.

وخاطفو الاطفال هم مجرمون مثل غيرهم. يعانون من اضطرابات سلوكية وهي التي تحدد انتقاءات جرائمهم واساليبها. الى ان المجتمع الغربي يتعامل مع هؤلاء المجرمين الذين هم من اعمار شبابية ومن المراهقين، وفاقدي التعليم ولديهم اضطرابات سلوكية في طفولتهم بشكل اخر ومثل هؤلاء يشكلون نسبة (٤٪) من تلك المجتمعات.

فاذا لم يعالجوا ،فانهم يتحولون الى مدمني اجرام ومخدرات وقتله. لذا تقرر انظمتهم ان يحجز مثل هؤلاء بعيداً عن المجتمع حتى تصير اعمارهم (٤٥) خمساً واربعين سنة، عندها يطلق سراحهم اذا يكونون قد تكيفوا للسلوك الاجتماعي. لانهم كانوا تحت اشراف وتأهيل. اما لماذا يتم اطلاق سراحهم في هذا العمر؟ فذلك بسبب ضعف قدراتهم الجسدية ودوافعهم وكذلك ضعف الهرمونات التي تسبب تغذية حالة الاجرام لديهم.

وان مجتمعنا بحاجة الى مثل هذه الدراسات بعد ان انتشر فيه الاجرام بهذا الحجم.

نساء شاركن في جرائم الخطف

كنت ارغب في ان ارى الناس الذين يخطفون الاطفال وتحقق لي ذلك ولكن، تيسر ان ارى نساءاً قمن بالمشاركة بعمليات الخطف فبعد زيارتي لسجن النساء في الكاظمية طلبت من المعاونة ان اقابل مسؤولة النساء اللواتي شاركن بجرائم الخطف. فكرت وكانها تسترجع اسماء وقالت للباحثة من فضلك استدعي لنا:

(زنوبة وكواكب، وبسرى، وزهور):

وعند انشغالي بحديث مع السيدة المديرة : فائزة وجدت مجموعة من النساء يقفن عند الجدار امام الباب، اشارت اليهن بالدخول. واستقبلتهن بسلام وترحاب ولم اشعر للحظة واحدة هل بامكان هؤلاء النسوة ان يرتكبن مثل هذه الجرائم.

وبعد التعرف على اسمائهن واعمارهن، انهالت الدموع، وحكين لي قصصاً ادعين فيها انهن مظلومات وكذلك اولادهن.

تحدثن عن سلوك الشرطة اتجاهن، والقسوة والعنف، وحتى صغارهم من الاطفال فقد احتجزوا في مدرسة تأهيل الاحداث في الكرخ.

وطلبن مني ان ارسل سلامي لهم وهن يبكين وقلن لي:

نتوسل اليك ابعثي لهم بسلام، فلا احد يزورهم منذ شهور طويلة، ولا تقولي لهم ان والدتك محكومة (بالسجن المؤبد)

تفاجأت بالاحكام وحزنت كثيرا على اولادهن الصغار الذين احتجزوا في سجن الاصلاح.حزنت ولم اجرؤ على ان اسألهن السؤال الذي طالما اردت سؤاله الى مثل هذا الصنف من الناس:

لماذا تختطفون الاطفال؟ ولماذا تؤذونهم ولماذا تعاملونهم معاملة سيئة؟ تبخرت الاسئلة مع الحسرة الشديدة التي اطلقتها وانا احاول ان انهض احداهن واساعدها على القيام مرة اخرى لانها كانت حاملاً.

.اصطدام سيارة الخاطفين ، انقذ طفلاً مخطوفاً داخل صندوق السيارة ، وهو الان ، لا ينام ولا يهدأ الا باقراص.

.د. علي مزيد ، اختصاص الطب النفسي: اعراض الصدمة ، إضطرابات ، اكتئاب ، قلق ، مخاوف ، مشاكل في المدرسة: فقدان المهارات المكتسبة حديثاً.

.طفل مخطوف عرضه المختطفون للكي بالسكائر والتجويع ليخبرهم عن اماكن احتفاظ عائلته باموالهم ومصوغاتهم.

.د. عبود رشيد ، اختصاص علم النفس: عائلته لم تذكر ان طفلها قد تعرض للخطف ، لكن الطبيب المختص يكتشف ذلك من خلال الاعراض التي يعاني منها الطفل..

رئيس جمعية الصحة النفسية د. عبد الكريم العبودي: سنعمل على تدريب اطباء مختصين بمعالجة اعراض صدمة الاختطاف عند الاطفال.

.والدة طفل مختطف ، افترشت الشارع المؤدي لمدرسة ابنها. مصابة بالجنون. تسأل المارة عنه ، ولم تستعد قواها العقلية حتى بعد عودته.

.نساء يشاركن بعمليات الخطف. ولديهن اطفال وازواج. يقضين بقية حياتهن في سجن النساء.

تنويه

نشرت (المدى) في عددها ٤٦١ الصادر في الحادي عشر من آب الجاري تحقيقاً للزميلة طاهرة داخل بعنوان (ذاكرة الطفل العراقي مشبعة بصور العنف العسكري والاعلامي والمدرسي والأسري). وقد سقطت سهواً الاشارة إلى ان التحقيق انجز بالاساس كبحث اعدته الكاتبة لدائرة ثقافة الاطفال التابعة إلى وزارة الثقافة وبتكليف من الدائرة . معتذرين للزملاء في ثقافة الاطفال.. وللقراء

قسم التحقيقات